أرستوقراطية الجهل

لا هو إلى الطول ، ولا هو إلى القصر ؛ أسمر اللون ، صغير العينين ، كبير الأنف ، واسع الشدقين ، بارز الذقن ، نحيل الجسد .

وخَطَّ الشيب شعره فصار أشبه إلى زرقة ، أشبه بلون البحر علاه الزَّبَد .

أخلاقه مزيج من المتناقضات ، فلا هو رحيم ، ولا هو قاس ، ولا هو كريم ولا هو شحيح ، ولا هو فاضل ولا هو رَذل ، ولا هو دنيء ولا هو عَفٌّ .

هو تركيب آدمي تحتكم فيه أعصابه ، فيلبس في كل حال ثوباً ، ولكل ظرف من ظروف الدنيا الصورة التي تلائم أعصابه المهدودة ، خبط عشواء وبغير مقدّمات من الفكر أو التأمّل . وهو إذ تمازجت فيه هذه الصفات المتنافرة ، فإنه لم يخلص من الدنيا بصفة تفرّدت بغير نقيض غير واحدة : هي الجهل .

جاهل صريح النسب إلى الجهل ، وافر المعرفة بأساليب الجهلاء ، ثابت القدم في تفهم طرق الادعياء ، وكيف يخفون الجهل والدعوى بالعلم بمسالك من القول المتقاطع ، النائع ميوعة الرّمال الناعمة ، فيلذ لك حديثه ، حتى إذا تأملته لم تجده شيئاً .

غير أن هذا الإنسان في الجهلاء نسيج وحده . فليس في الدنيا معضلة من معضلات الأخلاق إلاّ ولها عنده حل ، أو مشكلة من مشاكل الفلسفة والاجتماع إلاّ وله فيها أفانين من القول . فهو في ذلك فنّان ، ولا نقصد بهذه الكلمة هنا معناها الحديث الذي جرى على أقلامنا في هذا الزمن ، بل نقصد بها معناها القديم الذي عرفه أبو الأسود ، والخليل بن احمد ، إذ دلت في معاجمنا على الجسّار ، له فنون من الجري .... ومن الشَّطَط بالضرورة .

هو مع النقاة في كل فرع من فروع المعرفة ثقةٍ منهم ، وثبت من أثباتهم . فهو اقتصادي

واجتماعي وفيلسوف ومشرع وسياسي وعالم بالأصول والفروع وفقيه لغوي وأديب واسع الاطلاع ، إلى آخر ما هنالك مما تعدُّ من فروع المعرفة الانسانية .

يمضي مدَّعيًا أنه قرأ وأنه اطَّلع وأنه جرَّب وأنه ابتكر في العلم وعاد من بناء الأدب . وهو فوق هذا لئيم ، يدعي هذه الدعوى مستكبراً مصعِّراً خدَّه للعلماء ، مُستَفِّهاً لما يقولون ، نامصاً لما يقرِّرون ، هادماً لما يبنون ، ضارباً في كل فنّ ومطلب ضرب القمّار . لكن بالمعنى القديم .

هو جاهل ، ولكنه جاهل ارستوقراطي ، يرسل بجهالاته زهوًا بها ، واثقاً من أن نساء ، لا يقوى لطمة على الوقوف أمام جبروته الكاذب . يقحم نفسه في محيط العلماء ، ويقذف بها في جرّ المجربين الثقات ، ويعاشر السياسيين ليقال هو سياسي ، ويعاشي الصحفيين ليقال هو صحفي ، ويوثق صلاته بكل من امتاز في شيء من العقليات ليحشر في زمرتهم . ولكن من ورائه ابتسامات عريضة لها معناها .

له من الكبرياء غرور الكبرياء . وله من العصافير أحلام العصافير . إذا مشى دَقَّ بقدميه ، وصعَّر خده للناس ، وحلق في الرائح والغادي ، وتقرَّس في الحادي والبادي . فإذا مرَّ بحسناء اختال وتايل ، وإذا مرَّ بمنتدى لقوم تكبَّر وتطاول . كأني به يحدس إن كل الحسناوات في أفلال جماله ، وكل الرجال في أصفاد جاهه وماله .

صلة الرحم عنده أوهى من خيط العنكبوت ، وأدق من الصراط : الذي هو أنحل من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، فكيف يجتاز ذلك الصراط إلى ذوي رَحِمِه ؟ فإن تحطاه فإلى غير ذوي الرَّحِم .

مسكين الذوق ، أفلاكُ العقل ، فقير الضمير ، ذليل الوجدان ، لا تقع عينه إلا على أفلاكٍ منه ، أو مملوك يغدق عليه من برِّه ، وينفق عليه من ماله تتصل به أرحامه ، وتمتد بها إليه بناه وبنشراه ، وكلتاهما عن ذوي رحمه مقطوعة مبتوتة .

كل هذا لشيء واحد : هو أن يشتري به ثمناً قليلاً ! مديح مَن مدحه ذمٌّ وهجاء ، ومَن هجاؤه أعظم المديح وأغنى الثناء